﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾ [التغابن: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر النَّتيجة إلى التَّحذير بذكر سببها

لمّا ذكر في الآية السّابقة ما أتى المُشركين من أنباء الكافرين وما حلَّ بهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، ليقعَ تحذيرُ الكافرين الّذين أرسل الرَّسول ﷺ إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم؛ ناسب التَّصريح بالأسباب الّتي أدَّت إلى سوء عاقبة هؤلاء السّابقين، وهو التّكذيب والكفر، فهو انتقال من ذكر النّتيجة إلى التَّنبيه على سببها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبَشَرٞ﴾: البشَرةُ: ظاهرُ الجلدِ، وجمعُها: (بَشَرٌ وأبشارٌ)، وعبَّر عن الإنسان بالبشر اعتبارًا بظُهور جلدِه من الشَّعر، بخلاف الحيوانات الّتي عليها الصّوف أو الشَّعر أو الوَبَر، واستوى في لفظ (البشر) الواحدُ والجمع، وثُنّي فقال تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ﴾ [المؤمنون: 47]. وخُصَّ في القرآن كلُّ موضع اعتبر من الإنسان جثّته وظاهره بلفظِ البشر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71][1].

2) ﴿فَتَوَلَّوۡاْ﴾: التَّولّي هو الانصرافُ والإعراضُ، وقد يكون بالجسم، وقد يكون بتركِ الإصغاءِ والائتمار، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20]؛ أي: لا تفعلوا ما فعل الموصوفون بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: 7]، ولا ترتسموا قولَ مَن ذُكِرَ عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بشر).

ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: 26]، ويُقالُ: (وَلّاه دُبُرَه): إذا انهزمَ، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: 111][1]، والمُراد في الآية: التَّولي بمعنى الإدبار عن الحقّ بعد انكشافه.

3) ﴿غَنِيٌّ﴾: يأتي الغِنى على ضُروب: أحدها: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلّا لله تعالى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [الحج: 64]، ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: 15]، الثّاني: قلّةُ الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: 8][2]. وصفة (غنيّ) إذا كانت صفةً لله ﷻ فهو المالك لكلِّ شيءٍ، والغنيُّ عن كل شيء؛ أي: أنَّها بمعنًى يشملُ ما يرزقُ به خلقه في الدُّنيا والآخرة، ويشمل الاستغناء والكفاية بكيفيّة لا يعلمُها إلّا هو سبحانه[3].

4) ﴿حَمِيدُ﴾: الحمدُ: خلافُ الذّمِّ، يُقال: (حمدت الرّجل أحمدُه حمدًا)، إذا رأيتَ منه فعلًا محمودًا واصطنعَ إليك يدًا تحمدُه عليها[4]، ورجلٌ محمودٌ ومحمّدٌ، إذا كثُرت خصالُه المحمودةُ، والحميدُ: من صفات الله تعالى وتقدَّس بمعنى المحمودِ على كلِّ حالٍ، وهو من الأسماء الحسنى (فعيلٌ) بمعنى: محمود؛ وهذه اللَّفظة في الأصولِ: (فعيلٌ) بمعنى: (مفعول)، ولفظةُ (مفعول) في هذا المكان ينبو عنها طبعُ الإيمان، فعدَلْتُ عنها وقلتُ: (حميد) بمعنى (محمود)، وإن كان المعنى واحدًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآية الكريمة سببَ الهلاك والدَّمار الّذي لحق الكافرين

ذكـرُ أسـبـابِ الـعـذابِ إقـامـةٌ لـلـحـجّـةِ ودفـعٌ للشَّهوة ودحضٌ للشُّبهةِ

(1) الراغب، المفردات: (ولي).
(2) الراغب، المفردات: (غنى).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غنى).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حمد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

من الأمم السّابقة، وهو أنّهم كانت تأتيهم رسلُهم بالآيات البيّنات، وبالمُعجزات الواضحات، الدّالّة على صدقِهم، فما كان من هؤلاء الأقوام إلّا أن أعرَضوا عن دعوة الرُّسل، فكفروا بسبب هذا القول الفاسد، وأعرضوا عن الحقّ إعراضًا تامًا، واللّه غنيٌّ عنهم وعن العالمين، محمودٌ من كلِّ مخلوقاته بلسانِ الحال والمقال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآية:

بيانُ النّتائج بالأسباب والكشف عن عللِ المآلات من منهج القرآن في الإرشاد

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ إمّا على اعتبار أنّه استئناف بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا قد سأل عن ماهيّة الأمر الّذي بسببه ذاقوا العذاب، ووُعدوا بعذاب الآخرة، فهو لشبه كمالِ الاتِّصال، أو أنَّه بيانٌ لسببِ استحقاق العذاب الأليم بعد ذوق وبالِ كُفرهم، فهو لكمالِ الاتِّصال.

نكتةُ استعمال اسم الإشارة البعيد:

تشخيصُ العذابِ أرسخُ أثرًا في العقول، وأشدُّ وعظًا للقلوب

آثر النَّظم الكريم استعمال اسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، لبيان بُعد العذابِ الّذي وقع وسيقعُ عليهم، فجمع اسمُ الإشارة عذاب الدّنيا والآخرة، وليس المقصودُ بالجمع اتّحادَ العذابَين، بل اتّحاد سبب العذابَين، وفي البُعد تشخيص للعذاب، كأنّما يراه المُخاطَبون؛ ليقع الاعتبارُ والاتِّعاظُ.

بلاغةُ التَّعريض بالإشارة:

أخبارُ الغابرين تنبيهٌ للحاضرين وتقريبٌ لأذهان السّامعين

في الإشارةِ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ارتقاءٌ في التَّعريض إلى ضرب منه قريب من الصّريح، وهو المُسمّى في الكناية بالإشارة؛ فقد كانت مقالةُ الّذين من قبل مماثلةً لمقالة المُخاطبين؛ فإذا كانت هي سببَ ما ذاقوه من الوَبال، فيوشكُ أن

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 426.

يذوق مُماثلوهم في المقالة مثلَ ذلك الوَبال، فهذا عدٌّ لكفرٍ آخرَ من وجوه كفرهم، وهو تكذيبُهم الرَّسول ﷺ وتكذيبُهم بالقرآن؛ فإنّ القرآن بيّنةٌ من البيّنات لأنَّه مُعجزةٌ[1].

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ سببيّةٌ[2]، فالجملة في موقع العلّة، والمعنى: أنَّهم ما نالوا ما نالوه من العذاب الأليم وسوء المصير إلّا بسبب كفرِهم وتكذيبِهم للرُّسل.

دلالةُ ضمير الشَّأنِ:

بيانُ دلالةِ التَّهويل في مسألة الإرسالِ وإنكارِ الكافرين لها

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ ضميرُ الشَّأن، جاء لقصد تهويل ما يُفسِّر الضَّمير، وهو جملة ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[3]، ذلك أنَّ ضمير الشَّأن أو ضمير القصّة، يُستعملُ في معنى ذي شأنٍ، أو غرضٍ فخم؛ يستحقُّ توجيه الأسماع والنُّفوس إليه، فلا تُذكر الجملة مباشرةً خاليةً ممّا يدلُّ على تلك الأهميّة والمكانة؛ وإنّما يُقدِّمون لها بضميرٍ يسبقُها؛ ليكون الضَّمير بما فيه من إبهام وتركيز مُثيرًا للشَّوق، والتَّطلُّع إلى ما يُزيلُ إبهامَه، باعثًا للرّغبة فيما يبسطُ تركيزَه؛ فتجيءُ الجملة بعده؛ والنَّفس مُتشوِّقةٌ لها، في حرصٍ ورغبةٍ، فتقديم الضَّمير ليس إلّا تمهيدًا لهذه الجملة الهامّة، لكنَّه يتضمَّن معناها تمامًا، ومدلولُه هو مدلولها؛ فهو بمثابة رمزٍ لها ولمحة أو إشارة موَجّهةٍ إليها[4]، وأمرُ الرِّسالة أمرٌ جلَلٌ؛ لذا كان ضميرُ الشّأن هو المُعبِّرَ هنا عن عظمة شأنِ الرّسالة.

نكتةُ ذكر فعلِ الكون:

كثرةُ إرسال الرُّسل لتحقيق الحقِّ لا يعني الإذعان لاسم الإيمان

ذُكِرَ فعلُ الكون في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ﴾ لبيان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 268.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 425.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(4) عباس حسن، النحو الوافي: 1/ 250.

كثرة إرسال الرّسل تحقيقًا للهداية والرّشاد، مع ما يُصاحبُها من الدّلالة على الاستمرار، وما ينشأُ عن ذلك من موقف المُعاندين المُكذِّبين، فعلى كثرة إرسال الرّسل فهم يُكذِّبون ويُعاندون، فهي تجمع كلَّ المعاني، ودلالتها على الزَّمن مطلقةٌ، وتقييدها بالماضي أو الحال أو الاستقبال ما هو إلّا تأثير السّياق التَّركيبيّ[1].

نكتةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

جاء التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَأۡتِيهِمۡ﴾ لاستحضار الصّورة مع دوام واستمرار الرّسل وعدم الانقطاع، ففيه اهتمامٌ بالبشر، والحرص على هدايتهم، ممّا يدلُّ على تمام الحجّة.

نكتةُ إضافة الرّسل إلى الضَّمير:

في إضافة الرّسل إلى الضَّمير العائد على الكافرين في قوله تعالى: ﴿رُسُلُهُم﴾ بيانُ عناية الله تعالى بخلقه، حيث خصَّص لكلّ قوم رسلًا يدعونهم إلى الهدى والإيمان، مع ما فيه من التّشريف والإكرام، ولم يقل: (رسلنا)؛ وفي الإضافة لضمير الغائب بيانُ كمال عُتوِّهم وعنادِهم؛ أي: وبالله لقد جاء كلَّ أمةٍ من تلك الأمم المُهلَكة رسولُهم الخاصُّ بهم بالمُعجزات البيّنةِ المُتكثِّرة المُتواردةِ عليهم، الواضحة الجلالة على صحّة رسالتِه الموجبةِ للإيمان حتمًا[2].

من عناية الله بعبادِه أن يُخصِّص رسلًا لدعوتِهم وتذكيرِهم

دلالةُ استعمال لفظِ (الرُّسل):

جاء استعمال لفظ (الرّسل) في قوله تعالى: ﴿رُسُلُهُم﴾؛ لبيانِ أنَّ الّذين أرسلَهم الله تعالى هم رسلٌ أصحابُ رسالات خالصة، وأنَّ كلَّ أمّةٍ اختصَّت برسولٍ.

نوعُ الباء ودلالتُها:

دلّت الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ على شدّة التصاقِ الرُّسل

(1) دليلة مزوز، الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة، ص: 442.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 255.

بحُجَجِهم الواضحة الباهرة؛ والمعنى: تأتيهم رسلُهم مُلتصقين بالبيِّنات، والبيِّنة المُلتصقة بصاحبِها تُؤكِّد قوّةَ حُجَجِه.

سرُّ إيثارِ مفردةِ (البيِّنات) وجمعها:

شـدّةُ الوضـوح مـع عـظـمـة البيِّنات وعراقتِها

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مُفردة (البينات) للدّلالة على وضوح الأدلّةِ والبراهين الّتي جاء بها الرُّسل مع كثرتها، وهذا ما أفادَه الجمعُ؛ والجمعُ دالٌّ على الكثرة والتَّعدُّد، مع مُناسبة الجمع (البيِّنات) للجمعِ ﴿رُسُلُهُم﴾، فتعدُّد الرّسل يومِئُ بتعدُّد البيِّنات، وكلُّ رسول يأتي بينات كثيرة خاصّةٍ به مُعينةٍ له حسب اقتضاءِ الحِكمة؛ فإنَّ مُراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين الرُّسل وضميرِ الأمم[1].

بلاغةُ المجاز بالحذف:

إقـامـةُ الصِّـفـة مُـقـام الموصوف إمـعـانٌ في قـوّة الصّفة

لفظُ (البيّنات) يصلحُ أن يكون صفةً لموصوف محذوفٍ تقديرُه: (بالآيات البيِّنات)، وفي هذا تركيزٌ على وضوح الآيات وإعجازها؛ بحيثُ لا يقدرُ عليها بشر، فحذفُ الموصوف وإقامةُ الصّفة مُقامه إشارةٌ إلى عظمة البيِّنات وظهورِها بحيث لا تخفَى على ذي بصر.

نوعُ الفاء وفائدتُها:

المُـسـارعـةُ في الإنكار والتَّكذيب دلـيـلُ الـعـنـادِ واتّباع الشّهوات

دلّت الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ على السُّرعة والتَّعقيب، وهذا فيه من تصوير مُبادرة الّذين كفروا في الإنكار والرّفض ما فيه، بحيث إنّهم لم يتركوا لأنفسهم وقتًا للتّفكير كي يهتَدوا، بل سارعوا إلى حتفِهم، وسرعةُ الإنكار علامةُ العناد والاستسلام إلى شهوةِ النّفس، مع الاستعانة بتراث الآباء من الكفر والضّلال، ولواو الجماعة دلالةٌ على تواطُئهم في الإنكار واتفاقهم عليه، فليس الرّفض من واحد، وإنّما كانت كلمة (الكافرين) واضحةً واحدةً.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 255.

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغرضُه:

الكافر يُنكر أن يكون الرَّسول بشرًا ولا يُنكر أن يكون الإلهُ حجرًا

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ﴾ استفهام إنكار وإبطال واستغراب؛ فهم قد قالوا باستحالة أن يكون بشرٌ مثل الرّسل يهدون بشرًا أمثالَ الكافرين، وهذا من جهلهم بمراتب النُّفوس البشريّة ومَن يصطفيه الله منها، ويخلقُه مضطلعًا بتبليغ رسالته إلى عباده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، وجهلوا أنّه لا يصلحُ لإرشاد النّاس إلّا مَن هو من نوعهم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 95]، ولـمّا أحالوا أن يكون البشر أهلًا لهداية بشرٍ مثله؛ جعلوا ذلك كافيًا في إعراضِهم عن قبول القرآن والتدبُّر فيه[1]، فكانوا أهل عراقةٍ في قلّة عقولهم وسخافة أحلامِهم، فأنكروا أن يكون رسولهم بشرًا، ولم يُنكروا أن يكون معبودُهم حجرًا[2].

نوعُ تنكير لفظ ﴿أَبَشَرٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿أَبَشَرٌ﴾ للنَّوعية؛ لأنَّ محطَّ الإنكار على كونهم يهدونهم، هو نوع البشريّة[3].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَبَشَرٌ﴾:

الوجهُ الجامع بين الكافر وإبليسَ هو الكِبرُ والإباءُ عن طاعة البشر

الغالب في استعمال القرآن أنّه إذا أراد أن يُعبِّر عن الإنسان بالبشر فهو باعتبار ظهور جلده من الشّعر، فخُصَّ في القرآن كلُّ موضع اعتبر من الإنسان جثّته وظاهره بلفظِ البشر، نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، وقال ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]، ولـمّا أراد الكفّارُ الغضَّ من الأنبياء اعتبروا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 4/ 302.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.

ذلك فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: 15]، وقال تعالى: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾[1]، ذهابًا في أنَّ البشر مخلوقٌ من طين، وما كان كذلك فهو دون أن يكون رسولًا، وهو ذاتُه السَّبب الّذي انطلق منه إبليسُ حين أبى أن يسجدَ لآدمَ عليه السلام.

نكتةُ تقديم المُسند إليه على المُسند الفعليّ:

كبرُ الكافر مانعٌ من الإذعان للحقِّ

قُدِّم المُسند إليه على المُسند الفعليِّ على وجهٍ عند النُّحاة في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾؛ لقصد تقوّي حكم الإنكار، وما قالوا ذلك حتّى اعتَقَدوه؛ فلذلك أقدموا على الكفر برسلهم؛ إذ قد اعتقدوا استحالةَ إرسال الله إيّاهم، فجزموا بكذبِهم في دعوى الرِّسالة فلذلك فرَّع عليه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾[2].

دلالةُ التّعبير بالفعل المُضارع:

جاء التَّعبير بصيغة الفعل المضارع ﴿يَهۡدُونَنَا﴾ للدّلالةِ على أنَّ الرّسل كانوا يدعون أقوامَهم دون توقُّفٍ أو انقطاع، فهم في حالةِ تجدُّدٍ دائمٍ، وهذه وظيفتُهم الّتي كُلِّفوها فتحمَّلوها.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ تعقيبيّةٌ دالّة على سرعة الكفر وعدم التّواني؛ فالكفرُ متمكّنٌ من قلوبهم؛ أي: لم ينظروا في تلك البيّنات ولا تأمّلوها، بل عقّبوا مجيئَها بالكفر[3].

نكتةُ حذف مُتعلّق فعل ﴿فَكَفَرُواْ﴾:

الكفرُ عندما يصبحُ سجيّةً تأتي توابعُه سرّيّة

حُذِف متعلّق فعل ﴿فَكَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ الكفر كفرٌ عامٌّ مُتعدِّدُ المعاني والمُتعلَّقات، فالكفرُ بالله تعالى وبالرُّسل والكتب، فالكفر ليس مُتعلِّقًا بالله وحده، بل بكلِّ ما أُمروا أن يُؤمنوا به، مع إضفاء صفة

(1) الراغب، المفردات، ص: 125.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 189.

الكفر عليهم، فهم يفعلون الكفر سجيّةً، وهو ما يُرشِّحه استعمال الفاء الدّالّة على سرعة الكفر، ولا تكونُ المُسارعةُ في شيءٍ إلّا وفيه فضلُ تمكُّنٍ.

نكتةُ عطفِ التَّولّي على الكفر:

الكفرُ بالحقِّ والإدبارُ عن رسلِ الحقِّ علّتان صارفتانِ عن الأمنِ

عُطفُ فعل التّولي على الكفر في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ للدّلالة على شدّة نُفور المُعاندين من الحقِّ، فقد جحَدوا رسالات ربّهم، وأدبروا عن رسلِهم، فلم يكن الفعل واحدًا، وإنَّما تعدَّد بالكفر فالإدبارِ عن الحقّ، الّذي كان من شأنه - لو تمهّلوا قليلًا، ولم يستبدَّ بهم العناد - أن يهتَدوا إليه بأنفسهم، ولرأوا أنَّ ما يدعوهم الرَّسول إليه، هو دعوةٌ موجَّهةٌ إليهم من عقولهم، قبل أن يوجِّهها الرَّسولُ إليهم[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

كفرُ الكافر مظهرٌ من مظاهرِ غِنى الجبّار سبحانه

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ هي واوُ الحال؛ أي: والحال أنَّ الله غنيٌّ عنهم من زمنٍ مضى؛ فإنَّ غنى الله عن إيمانهم مُقرَّر في الأزل[2]، وجوِّز جعلُه حالًا بتقدير (قد)؛ أي: وقد استغنى بكماله، عرفوا أم لم يعرفوا، وتحتملُ أن تكون الواوُ للعطف، فيكون فعل (استغنى) معطوفًا على ما قبله[3]، على سبيل سرد الأخبار، فالكفّار كفروا بالله، وأدبروا عن رسلِه، والله استغنى عنهم، ولم يزل غنيًّا عن العالمين.

دلالةُ السّين والتّاء:

السّين والتّاء في ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾ للمُبالغةِ، كقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥﴾ [عبس: 5]، والمعنى: غَنيَ الله عن إيمانهم، قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: 7][4].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 978.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(3) القاسمي، تفسير القاسمي: 9/ 244.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.

دلالةُ الإيماء في فعلِ: ﴿وَٱسۡتَغۡنَى﴾:

جاء استعمالُ فعلِ: ﴿وَٱسۡتَغۡنَى﴾ لبيان إعراضِ الله عنهم، وطردِه إياهم بالاستغناء، من باب الرّدِّ عليهم بمثل منطقِهم وسلوكِهم، وأنَّهم لـمّا استغنَوا عن الله، فقد استغنَى الله عنهم[1].

نكتةُ حذف مُتعلّق فعل ﴿وَٱسۡتَغۡنَى﴾:

حُذِف مُتعلّق فعل ﴿وَٱسۡتَغۡنَى﴾ لبيان العموم؛ ليتناولَ كلَّ شيءٍ، ومن جملته إيمانُهم وطاعتُهم[2]، وليكون هذا الفعلُ وصفًا لله تعالى، فهو الغنيُّ عن خلقِه جميعًا.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ استئنافيّةٌ، والجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب[3]، دالّة على استقلاله ﷻ بالغنى والحمد واستغنائِه عن المخلوقات كلِّها.

نكتةُ التَّعبير بالجملة الاسميّة:

دلَّ التَّعبير بالجملة الاسميّة في فاصلة الآية ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ على نكتة الثَّبات والدَّوام وعدم الانقطاع، فغِناه عن مخلوقاته ثابتٌ لا يتزعزعُ، وهو الحميدُ المحمودُ بكلِّ لسان، فكانت الجملة الاسميّةُ مُشيرةً إلى عظمتِه واستغنائِه عنهم، ومَن كان غنيًّا عن البشرِ فهم المُحتاجون إليه، الطّالبون حمدَه وتعطُّفَه عليهم؛ فذِكر الغنى يتضمَّن طلبَ الخضوع والالتجاء إليه ﷻ.

ثـبـاتُ الـحـمـد والغنى لصاحب الـغِـنـى المُطلق إثـبـاتُ حاجة البشر له

نكتةُ إظهار اسم الجلالة في موضع إضمارِه:

جاء التَّعبير بالاسم الظّاهر (الله) دون الضّمير، مع أنَّ ذكر الضّمير أخفُّ[4]؛ لتربية المهابة والخوف في النُّفوس كافّةً، فإنَّه الغنيُّ

الكلمةُ الجامعةُ مثَلٌ سائرٌ وحكمٌ دائرٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 978.
(2) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 491.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 348.
(4) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 226.

عن كلِّ عباده، مع الإشارة إلى التَّعظيم[1]، ولزيادة التَّقرير، وتأكيد المعنى باللَّفظ نفسِه، ولتجريَ الجملة مجرى الأمثال السّائرة.

مُناسبة التَّذييل بصفتَي: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

تقريرُ المعاني طريقُ بيان المقاصدِ وتوكيدِ المطالب

جاءت جملة الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تذييلًا؛ لما فيها من تقرير المعنى السّابق وتوكيدِه، فهو الغنيُّ عن كلِّ شيء فيما طلب منهم، الحميد لمن امتثل وشكر[2]، وهو سبحانه مُستوجبٌ للحمد بذاته؛ لكثرة ما يوجِبُه من أياديه وإن لم يحمده أحدٌ، أو محمودٌ تحمدُه الملائكة ﷺ، بل كلُّ ذرّة من ذرّات العالم ناطقةٌ بحمده، والحمد حيث كان بمُقابلة النِّعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كمالِه ﷻ[3].

نكتةُ تقديمِ ﴿غَنِيٌّ﴾ على ﴿حَمِيدٌ﴾:

صاحبُ الكمال يستوجبُ المحامدَ كلَّها

قُدِّم ذكرُ صفةِ ﴿غَنِيٌّ﴾ على صفة ﴿حَمِيدٌ﴾ من باب تقديم السَّبب على النَّتيجة؛ فالغنيُّ هو صاحبُ الكمال التّامِّ على الإطلاق، وصاحبُ الكمال التّامِّ صفةٌ تستوجبُ المحامد كلَّها، فكان استحقاقُ الحمد نتيجةً لغناه وكماله واستغنائه عن البشر.

نكتةُ تنكير صفتَي: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

التَّعظيم والتّفخيم ثوابتُ صاحبِ الكمال المُطلق

تنكير الصِّفتين: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إشارةٌ إلى تعظيم الله وتعظيم صفاته، مع التّفخيم المُلائم لعظمة الصِّفات؛ فهو بذاته غنيٌّ عن العالمين، فضلًا عن إيمانهم، لا يتوقَّفُ كمالٌ من كمالاته عليهم، ولا على معرفتِهم له، حميدٌ؛ أي: يحمدُه كلُّ مخلوقٍ، أو مُستحقٌّ للحمد بنفسه، وإن لم يحمَدْه حامدٌ[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 88.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 183.
(4) القاسمي، تفسير القاسمي: 9/ 244.

دلالةُ صيغة (فعيل):

صـفـةُ الحـمـد ثابتةٌ لله تعالى بحـمـدِ العـبـاد وبدونِه

جاء التَّعبير بصيغة (فعيل) لصفة ﴿حَمِيدٌ﴾ وهي صفةٌ مُشبَّهة، تدُلُّ على أنَّ الوصف ثابتٌ في صاحبِه أو كالثّابت، فلفظُ ﴿حَمِيدٌ﴾ أثبتُ وأبلَغُ من (محمود)؛ لرُسوخ الوصف فيها، فهو حميدٌ بحمد النّاسِ وبدون حمدهم، وهو ما يجعلُ اختيار هذه الصّيغة هو الأنسبَ مع صفة الغنيّ المُستغني عن عبادِه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"